COURRIER DU SAVOIR – N°16, Octobre 2013, pp107-124

الاتجاهات الحديثة في نظرية التخطيط العمراني: من عموميات النظريات المعيارية إلى خصوصيات الممارسة بحكمة في الواقع

الطـــــــاهر لـــــــــــدرع
جامعة الملك سعود، كـــــــــــلية العـمارة والتـخطيط

المستخلص

يستعرض البحث تطور نظرية التخطيط العمراني Urban Planning واتجاهاتها الحديثة ويشير لبعضالإشكالات التي تعترض عملية التخطيط ممارسة وتنظيراً. فالتخطيط بحكم طبيعته المعيارية normative يسعى جاهداً لتشكيل بناء نظري متماسك يؤسس لواقع عمراني مرغوب فيه. إلا أن هذا التخطيط مضطر في ذات الوقت لتوصيف الواقع كما هو قائم ثم يتعامل معه بموضوعية آخذاً في حسبانه تضارب الرغبات وصراع المصالح مما يحيل الوضع المعياري المرغوب نظرياً مجرد حلم صعب المنال واقعياً. وتاريخ التخطيط العمراني حافل بالأفكار المعيارية التي انتكست بمجرد نزولها لواقع الممارسة في دنيا الناس. وهذا ما حدا بكثير من المنظرين أن يصفوا تاريخ التخطيط بتاريخ انتكاسات التخطيط. هذه الطبيعة المزدوجة للتخطيط (المعياري normative مقابل الوصفي descriptive) فرقت الباحثين في موضوعه تيارات متعددة واتجاهات متشعبة تسعى للتوفيق بين النظرية والتطبيق من زوايا مختلفة. ففي البداية كان التخطيط العمراني يتماهى إلى حد بعيد مع فن العمارة إلى درجة أن مخرجاته كانت تحاكي منتجات العمارة لكن على نطاق واسع. إلا أنه وبعد النتائج الهزيلة التي أفرزتها تجربة هذا الاتجاه العقلاني في التخطيط rational planning لم يكن هناك مناص من بروز اتجاه آخر يسعى للملمة وضع التخطيط وتقويمه. فظهر الاتجاه الذي يرى أن على التخطيط أن ينأى بموضوعه عن التعامل مع إنتاج الأشكال الفيزيقية planning as a product التي هي جوهر الفكر المعماري ليركز على عملية صياغة السياسات واتخاذ القرارات التخطيطية planning as a process. إلا أن هذا لم يحسم الجدلية القائمة بين الطبيعة المعيارية normative المثالية idealist للتخطيط وطبيعته التوصيفية descriptive الواقعية realistic. فظهرت اتجاهات تعلي من شأن الجانب المعياري في التخطيط لعل أهمها الاتجاه التواصلي communicative planning الذي يعني بتشكيل اتفاق وإجماع consensus building عن طريق التفاوض والحوار بين مختلف الأطراف المتصارعة مصالحها في العملية التخطيطية، واتجاه العمران الجديد New Urbanism الذي يحاول أن يستلهم من الصياغة التقليدية للعمران أشكالا جديدة تناسب الوضع الجديد لما بعد الحداثة، واتجاه المدينة العادلة Just City والمدينة متعددة الثقافات والإثنيات Multi-ethnic City. وفي المقابل ظهرت تيارات تثمن الجانب الواقعي الموضوعي في التخطيط كتيار الممارسة بحكمة في التخطيط phronetic planning حيث يُعنى هذا الاتجاه بما يحدث فعلاً في واقع التخطيط what is actually done بدل الاهتمام بما ينبغي أن يكون عليه التخطيط أو ما ينبغي أن يحصل فيه what planning ought to be or what should be done. أي أنه يزيح التخطيط من برجه العاجي المثالي لينزله إلى دنيا الناس حيث يحتدم الصراع على السلطة وتتضارب المصالح power struggle and conflict of interests ليُترجم ذلك في واقع المخططات ممارسة وتنظيراً. بهذا تكون كل وضعية تخطيطية حالة متفردة لها ظروفها الخاصة التي تستدعي حكمة في التعامل والممارسة ولا تحتمل التعميم أو الاستنساخ. يتعين على كل حالة تخطيطية أن تراعي توزيع السلطة ضمن المجتمع المحلي وصراع القوى والمصالح. يخلص البحث في النهاية إلى نتيجة مفادها أن نظرية التخطيط تبقى نظرية عرجاء ما دامت تستلهم أطرها الفكرية من تجارب المجتمعات الغربية (أوروبية أمريكية وأسترالية) متجاهلة إلى حد ما إسهامات المجتمعات الأخرى (العربية والآسيوية والجنوب أمريكية) والمعرفة المتراكمة لديها في عملية التخطيط. فإسقاط هذه النظريات ذات الأصل الغربي على واقع بيئات مختلفة اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً لا يتماشى والمفهوم السليم لممارسة التخطيط في الواقع بحكمة. والآسيوية والجنوب أمريكية) والمعرفة المتراكمة لديها في عملية التخطيط. فإسقاط هذه النظريات ذات الأصل الغربي على واقع بيئات مختلفة اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً لا

يتماشى والمفهوم السليم لممارسة التخطيط في الواقع بحكمة.

ABSTRACT

The paper sets out to discuss the problems of planning theory and its development. It unravels the dichotomous nature of planning as a subject that has to reconcile theoretical abstractions and real practice. The difficulty resides in the fact that building a theory requires some internal consistency whereas the problems of the real world are not necessarily so consistent. This is probably the reason that has led many scholars to hastily jump to the conclusion that history of planning is one of great planning failures. At first, planning was seen as part of architecture or the art of building cities. Planning was thus conceived mainly as a blue-print or design oriented process. This rational approach that has dominated the sixties and seventies has not been able to produce any sound results. Another approach, known as the procedural planning, has thus emerged to overcome the problems of its predecessor. It asserts that planning is not about design but policy. Planning theory today seems to be taking three main directions. The communicative or collaborative direction aiming at consensus building among different stakeholders, the new urbanism direction inspired by the traditional patterns of public space design, and the phronetic planning that attempts to take account of power/knowledge issues within society.

The paper concludes that the theory of planning is mainly developed from western experiences and contexts of planning. It lacks any contribution drawn out from the planning experiences and contexts of oriental and less developed societies. This cultural bias must be overcome if a clearer picture of planning theory is hoped for.

1. فكر الحداثة وأزمة التخطيط

هيمن الفكر الحداثي خلال العقود الممتدة من خمسينيات القرن الماضي إلى سبعينياته على العملية التخطيطية. يقوم هذا الفكر الحداثي ومن خلاله عملية التخطيط برمتها على أن المعرفة العلمية المكتسبة من خلال البحث والتحليل العلمي كفيلة بحل مشاكل المدن وإنسان هذه المدن على السواء. وتبعاً لذلك اختُزلت عملية التخطيط في الأسلوب العقلاني لاتخاذ القرار rational decision-making. تؤمن النظرة الحداثية بعالمية المعرفة العقلانية وعليه فإن المخطط الخبير قادر على إيجاد الحلول لكل المشاكل العمرانية في أي مكان في العالم ولأي إنسان فيه إذا ما هو تسلح بالمنهج العلمي العقلاني. وبسبب طغيان عقلانية الحداثة، لم يجد أحد جهابذة التخطيط في تلك الفترة بداً من تعريف التخطيط على أنه تلك العلاقة التي تربط المعرفة بالفعل (فريدمان 1998 planning is the relationship between knowledge and action (Friedmann,. ويبدو هذا التعريف متأثراً إلى حد بعيد بمقولة زعيم الفكر التنويري الحداثي فرانسيس بيكون Francis Bacon (1561-1626) حين قال أن "المعرفة قوة وسلطة knowledge is power" وكان يعني هنا تلك المعرفة التي ينتجها الخبراء باستعمال مَلَكة العقل والمنطق في البحث والتحليل. ومنه فلن تقف أي مشكلة عمرانية مهما كانت مستعصية عائقاً أمام خبراء التخطيط إن هم استخدموا نفس الأداة والأسلوب: المعرفة العلمية التي هي في أساسها معرفة غربية.

إلا أن المتأمل في واقع التخطيط الذي تمخض عن مثل هذه الأفكار الحداثية من خلال أدبيات نقاد التخطيط كنظرية وكممارسة سوف لن يجد عنتاً كبيراً في الوصول إلى نتيجة مفادها أن تجربة التخطيط خلال تلك الحقبة من الزمن قد باءت بالفشل الذريع. وسينتابه الشعور بالإحباط أكثر حينما يستكشف من وراء السطور أن هناك شبه اتفاق بين منظري التخطيط والممارسين له مؤداه أن مستقبل التخطيط ليس بأحسن حال من ماضيه. ولعله ليس من المبالغة في شيء إذا اعتبرنا أن تاريخ التخطيط هو تاريخ انتكاسات التخطيط.

إن تجارب التخطيط الفاشلة والمتكررة هو ما حدا بكثير من النقاد إلى عدم التردد في إصدار أحكامهم السلبية على هذا التخصص. فقد كان بيثر هال (1990) Peter Hall معبرا على لسان حالهم حينما أصدر حكمه القاسي على هذه المهنة في مؤلفه الذي يسرد فيه الكوارث الكبرى للتخطيط Peter Hall (Great Planning Disasters). إن هذا الوضع الكارثي لهذه المهنة سبق وأن أشار إليه الآباء الأوائل للتخطيط حيث أنهم أصدروا أحكاماً مماثلة في فترة مبكرة من تجربته. فقد حذر إبنزر هوارد Ebenezer Howard من نمط التخطيط الذي كان سائدا في عصره وادعى بأن المجتمع البشري مهدد في أمنه واستقراره إذا استمر تخطيط المدن على ما هو عليه. ولتجنب الكارثة وضع تصورا لما ينبغي أن تكون عليه مدن الغد وسماها "مدن الحدائق" (1902) "Garden Cities of Tomorrow" . أما لوكوربيزييه Le Corbusier فقد كان حكمه على مدن زمانه أشد وأقسى، فتنبأ في مؤلفيه الذائعي الصيت "نحو عمارة جديدة" Towards a New Architecture (1923) و"مدينة الغد" The City of Tomorrow (1929) بخراب الحضارة الإنسانية إذا هي لم تتدارك أمر مدنها وتجري عليها عمليات جراحية كبرى تستأصل معها أوبئة العمران التي تسببت فيها ممارسة التخطيط آنذاك. وهو بدوره يقدم بديلاً تخطيطياً لمدينة الخلاص البشري

سماه المدينة المشعة (La Ville Radieuse-The Radiant City) والمدينة المعاصرة (The Contemporary City) التي تستوعب ثلاثة ملايين من البشر. وهناك العديد من منظري المدينة الحديثة ممن حذوا حذو إبنزر هوارد ولوكوربيزييه فاقترحوا أشكالاً تخطيطية للمدن التي يرونها جديرة بأن تكون مدن المستقبل التي تحل مشاكل الحضارة العمرانية الحديثة، كطوني غارنييه ومدينته الصناعية Tony Garnier (The Industrial City)، وصوريا إماطة ومدينته الخطية Soria Y Mata (The Linear City) وفرانك اللويد رايث ومدينته الممتدة Frank Lloyd Wright (Broadacre City) وغيرهم كثير.

ولعل الناقد الحديث تشارلز جينكز Charles Jencks (1990) كان أشدهم حكماً على فشل تجربة المائة عام من التخطيط إذ لم يتورع في مؤلفه الشهير "لغة فن العمارة لما بعد الحداثة" The Language of Post-Modern Architecture أن يصدر شهادة الوفاة للتخطيط الحديث موضحاً بدقة تاريخ ومكان الوفاة. المكان في سان لويس ميسوري بأمريكا. والزمان في الحادي عشر من شهر يولية–تموز عام 1972 وهو تاريخ هدم مشروع بروث إيغو Pruitt-Igoe Scheme الحائز على الجائزة الأولى لتميزه في تطبيق مبادئ المؤتمر العالمي للحداثة في العمارة والعمران International Congress of Modern Architecture (ICMA).

ولقد توهم البعض مخططين مع جينكس أن البشرية قد تخلصت بهذه الوفاة من كوارث التخطيط الحديث. إلا أن هذا الوهم لم يدم طويلاً حتى أطل عليها ناقد آخر من شمال أوروبا (Bent Flyvbjerg) ليعيد إلى الأذهان زمن الانتكاسات التخطيطية في مؤلفه عن تجربة آلبورغ Aalborg بالدانمارك حيث يعرض فيه تحليلاً لمخطط مركز المدينة وعنوانه "العقلانية والسلطة: الديمقراطية في الممارسة" (1998) Rationality and Power: Democracy in Practice. ولقد أسهب كثير من النقاد المعاصرين مثله في تقصي هفوات التخطيط والتشهير بنقائص ممارسته وتبعاته السلبية على الأفراد والمجتمعات والبيئة الطبيعية. ولكثرة الهفوات والنقائص التي اكتنفت تجربة التخطيط المعاصر أصبح دارجاً عند هؤلاء النقاد تعبير "الجوانب المظلمة في التخطيط" (The Dark side of Planning). أما الجوانب المشرقة والمضيئة فتكاد تلغى من قواميسهم وأحاديثهم.

لا شك أن هذا الوضع الإشكالي للتخطيط وهذه الأزمة التي يكابدها نابعة من طبيعته المزدوجة حيث أن عليه أن يوائم بين البناء النظري لمفاهيمه ومعارفه وكيفية تطبيقها وتنفيذها على أرض الواقع. وهذه النقطة هي مجال البحث في الفقرة التالية.

2. الطبيعة المزدوجة للتخطيط

تكمن ازدواجية التخطيط في كونه ذي طبيعة نظرية وتطبيقية في آن واحد. فهو عليه أن يهتم بجانب التنظير والتجريد شأنه في ذلك شأن سائر العلوم الاجتماعية. ولكنه كأحد العلوم التطبيقية، فإن عليه أن يُخضع استنتاجاته النظرية على محك الواقع ويقوم بتطبيق توصياته. هذه الازدواجية المتأرجحة بين النظرية والتطبيق هي التي تزيد في تعقيدات التخطيط وتجعل عملية التنظير له عملية غاية في الصعوبة لأنها على عكس العلوم النظرية الأخرى عليها أن تجمع ما بين جانب التجريد النظري للتخطيط وجانب الممارسة فيه.

هذه الطبيعة المزدوجة للتخطيط هي التي ولدت إشكالات جمة في صياغة بناء نظري متماسك لهذا التخصص. وقد نبه أندرياس فالودي Andreas Faludi (1973) إلى هذا الإشكال قبل ثلاثة عقود حيث ميز ما بين اتجاهين أحدهما يسعى لصياغة نظرية للتخطيط Theory *of* Planning بينما يحاول الآخر أن يؤسس لنظرية في التخطيط Theory *in* Planning. يبحث الاتجاه الأول في مخرجات التخطيط ومنتجاته مركزاً على الشكل النهائي الذي يفرزه التخطيط وهو ما اصطلح على تسميته بالتخطيط الموضوعي Substantive Planning. وأما الاتجاه الثاني فيعير كبير اهتمامه للمسار الذي يفضي لنتائج ومخرجات التخطيط بدل النتائج والمخرجات في حد ذاتها. فالمهم في رأيه هو أن تركز نظرية التخطيط على الأسلوب الذي يفضي للأشكال التخطيطية. وقد سمي هذا الاتجاه بالتخطيط الإجرائي Procedural Planning. وخلص فالودي Faludi من تحليله هذا إلى نتيجة أساسية مفادها أن جوهر التخطيط لا يكمن في إعداد تصاميم مخططات وإنما هو أساليب وإجراءات صياغة السياسات التخطيطية بالدرجة الأولى.

ما من شك أن هذا الجهد التنظيري الذي قام به فالودي Faludi هو تشخيص وانعكاس للنتائج الهزيلة لتجربة التخطيط في خمسينيات وستينيات القرن الماضي. أما في العقود الأخيرة فإن هناك غموض كثير أصبح يكتنف معنى التخطيط وحدود تخصصه ودوره وموضوعه. وهذا ما دفع بكثير من الدارسين إلى تجاوز ثنائية فالودي Faludi في نظرية التخطيط ليكرسوا جهودهم للبحث عن نظرية شاملة جامعة للتخطيط Grand Theory on Planning تضم شتاته وتلم عناصر بنائه النظري في ضفيرة واحدة (Archibugi: 2004; Hagen:

.1998)

ويبدو أن هذه التعقيدات الناجمة عن طبيعة التخطيط المزدوجة قد ولدت تعقيدات أخرى تخص موضوع بحث نظرية التخطيط ذاتها. فانقسم الباحثون في هذا الشأن إلى فريقين، فريق يتناول عملية التنظير من زاوية البحث في كيفية الرقي بالتخطيط كأداة وكممارسة بغية تحسين أدائه ورفع كفاءته. وفريق آخر يهتم بتسليط الأضواء على الدور الذي يلعبه التخطيط في عملية الإنتاج الاجتماعي للفراغ وللبيئة العمرانية. وبتعبير آخر فإن هناك مدرستان تتجاذبان موضوع نظرية التخطيط. مدرسة تتعامل مع التخطيط كغاية في حد ذاته وأخرى تتناوله على أساس أنه وسيلة لغاية (Faludi (2003.

إن هذه الطبيعة المزدوجة للتخطيط قد أربكت الفكر التخطيطي وشوشت موضوعه وبقي منظروه أسرى لثنائيات فكرية من اصطناعهم. ومن أهم هذه الثنائيات التي هيمنت على نظرية التخطيط هي ثنائية الطبيعة المعيارية للتخطيط مقابل الطبيعة الوصفية له، وهو موضوع الفقرة التالية.

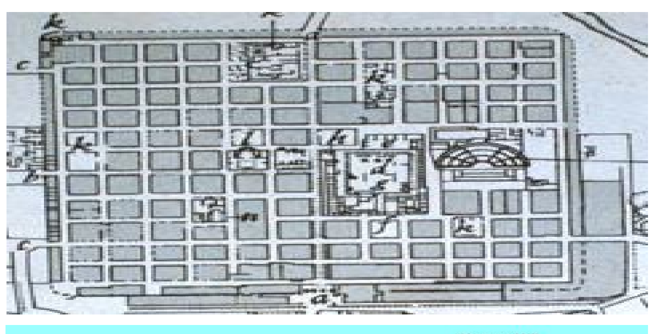
3. التخطيط المعياري مقابل التخطيط الوصفي Normative versus Descriptive Planning

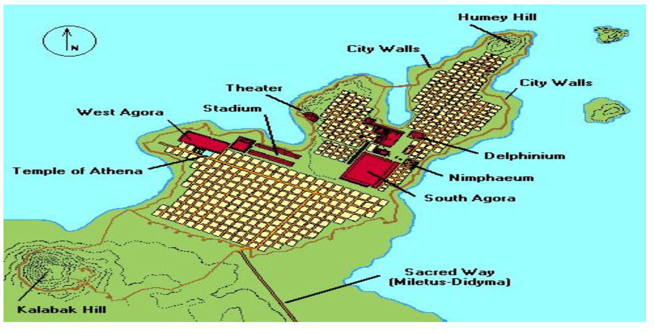
تتجاذب عملية التخطيط خاصيتان اثنتان، إحداهما وصفية والأخرى معيارية. تقتضي الطبيعة الوصفية للتخطيط أن يقوم على فهم العملية التخطيطية فيصف إجراءاتها المتخذة وأساليبها المتبعة أثناء ممارسة الفعل التخطيطي. لكنه في الوقت ذاته ما دام يسعى لتحسين أوضاع الناس ورفع مستواهم والدفع بالتغيير الاجتماعي نحو الأفضل والأرقى فهو إذا ذو خاصية معيارية. فهو إما أن يصف الوضع القائم ويستوعب ما هو كائن على الأرض فيكون وصفيا، وإما أن يتجه نحو صياغة الوضع المستقبلي الذي ينبغي أن يكون عليه، هنا يتحول إلى وظيفته المعيارية التي يحاول فيها توجيه الفعل نحو قيم يتبناها ويسعى لتحقيقها. ويبدو أن التخطيط قد رجح كفة خاصيته المعيارية، فهي قد لازمت تطوره وحددت مساره كمهنة تنشد الخير وتهفو للعدالة الاجتماعية وتتوق لكل ما هو جميل.

ويعاني التخطيط من إشكال في الحالتين كلتيهما. فهو حينما يكون وصفياً فإنه يكون سلبياً فتخونه الفعالية ولا يستطيع أن يغير من الوضع الإشكالي للواقع الذي يصفه وللظاهرة التي يتناولها. وبالمقابل فهو حينما يكون معيارياً فإنه يصبح حالماً منفصلاً عن الواقع وغالباً ما لا يتم تنفيذ المخططات المبالغة في الأحلام على أرض الواقع. وسنحاول أن نستعرض تجليات الفكر التخطيطي وتطور اتجاهاته سواء كانت وصفية أو معيارية من البدايات إلى الوقت الحاضر.

4. تطور اتجاهات الفكر التخطيطي

عُرف التخطيط كممارسة وكنشاط إنساني منذ عصور ما قبل التاريخ، إلا أن التخطيط كعلم قائم بذاته له أسسه ونظرياته لم يبرز إلى الوجود إلا قبل فترة لسيت بالطويلة. فقد مارس الإنسان التخطيط منذ أن عرف الاستقرار في تجمعات بشرية. وقد حفظ لنا التاريخ بقايا لهكذا تجمعات بشرية تنم عن نظام تخطيطي خضعت له. ومع تطور فنون العمارة أصبح التخطيط جزء منها وأحد فروعها واستمر الأمر كذلك لقرون طويلة.





الحالتين كأنهما شكل معماري ضخم. (المخطط الأول لمدينة مايلتوس الإغريقية والشكل الثاني لمدينة تيمقاد الرومانية). المصدر لموقع المدينتين في الأنترنيث.

http://www.goddess-athena.org/Museum/Temples/Miletus/Miletus_map.html
http://www.ic.ucsc.edu/~langdale/arth134/Timmap.jpg

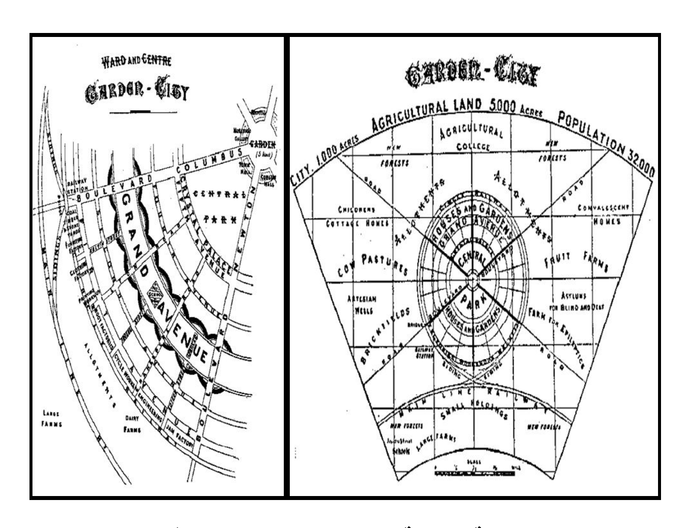
إلا أنه مع ظهور الثورة الصناعية تفجرت أسوار المدينة التقليدية وزحفت إليها جحافل الريفيين والقرويين ليستقروا بجوار المناطق الصناعية فطفت على السطح مشاكل عويصة لا قبل للقائمين على شؤون المدينة بها. وعجزت الأطروحات التي

يتبناها فن العمارة عن أن تقدم حلولاً شافية لهذا الكم الهائل من المشاكل التي أصبحت المدينة الصناعية تتخبط فيها. ومن هنا بدأ التفكير في وضع أطر جديدة وقواعد نظرية تسعى لأن تحيط بقضايا المدن وتفهم أبعادها وتفكك مشاكلها وتصف عناصرها وتحاول تقديم ما تيسر من حلول لها. وفيما يلي بعض أهم تلك الاتجاهات.

5. الاتجاه التصميمي العمراني في التخطيط Physical Design-Oriented Planning

في البدء كان التخطيط جزءاً من العمارة واستمر لصيقاً بها لقرون طويلة. لهذا لم تكن بداياته الأولى كفن قائم بذاته إلا شكلاً من أشكال التصميم الفيزيقي لأشكال معمارية على نطاق واسع. فلم يقطع الحبل السري الذي يربطه بفن العمارة وبهذا تحددت نظرته للمدينة على اعتبار أنها مبنى ضخم عملاق، تجري عليها نفس القوانين التصميمية التي تتحكم في المبنى الواحد. ومن هذا المنطلق اعتقد أوائل المشتغلين بالتخطيط أن تطبيق نفس أدوات التصميم في العمارة كفيل بأن يحل مشاكل المدن وعمرانها. وهنا لابد من الإشارة أن مشارب وخلفيات معظم المخططين الأوائل كانت معمارية في الأساس. وبالتالي فهم لم يفطموا تماماً من تأثير فن التصميم المعماري ولهذا سعوا جهدهم ليطبقوا مبادئه على قضايا التخطيط.

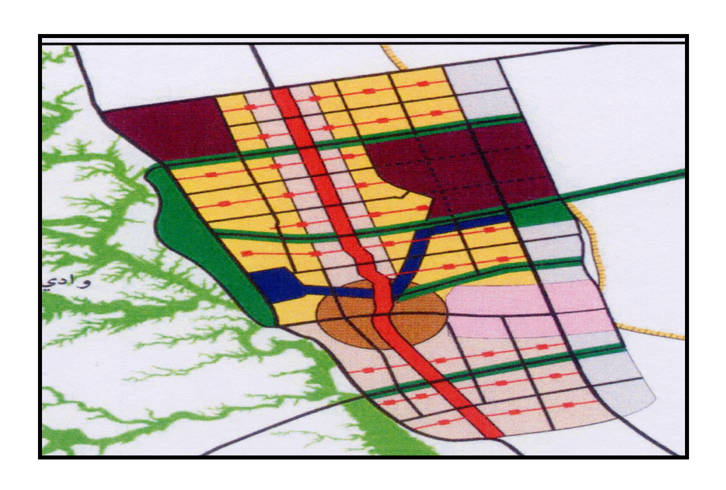
وعلى هذا الأساس كان على التخطيط من منظورهم أن يهتم بتنظيم المدينة وصياغة شكلها المستقبلي الجميل والمتناسق. فاقتصرت وظيفته على وضع الآليات والأدوات الكفيلة بإنتاج شكل عمراني نهائي منظم وجميل. وفي مناخ تهيمن عليه مثل هذه الأفكار فإنه من الطبيعي أن تبرز إلى السطح النظرة الشمولية للتخطيط (The Comprehensive View of Planning) لتجسد هذا المسعى على أرض الواقع، فوُضعت لهذا الغرض أدوات مثل المخطط الشامل والمخطط التوجيهي العام. تختزل هذه النظرة التخطيط في تصور وتصميم الشكل العمراني المستقبلي للمدينة وتثبته في مخططات تنتظر التنفيذ. هذا الشكل هو الغاية والنهاية التي ينشدها التخطيط. فقد اهتم منظرو هذا التيار بوضع مخططات لما يرون أنه أفضل الأشكال العمرانية للمدينة مثل لوكوربيزييه في المدينة المشعة (Le Corbusier; The Radiant City) وإينزر هوارد في المدينة الحديقة (Ebenezer Howard; The Garden City) وفرانك اللويد رايث في المدينة الشاسعة الممتدة (Frank Lloyd Wright; Broadacre City).

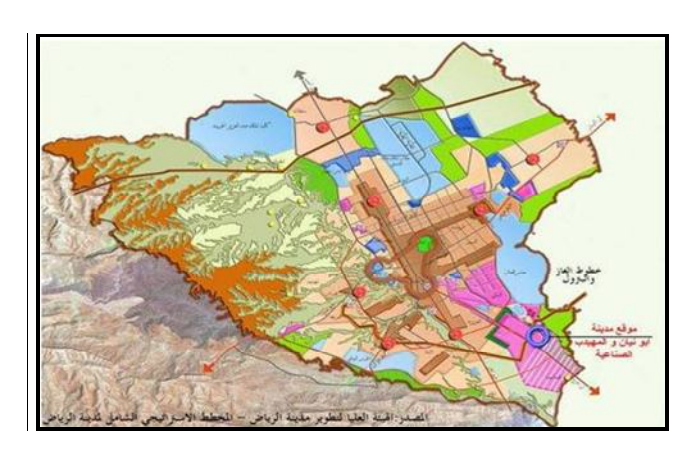


شكل 3: مخطط المدينة الحديقة لإبنزر هوارد المصدر موقع النت
http://www.library.cornell.edu/Reps/DOCS/howard.htm

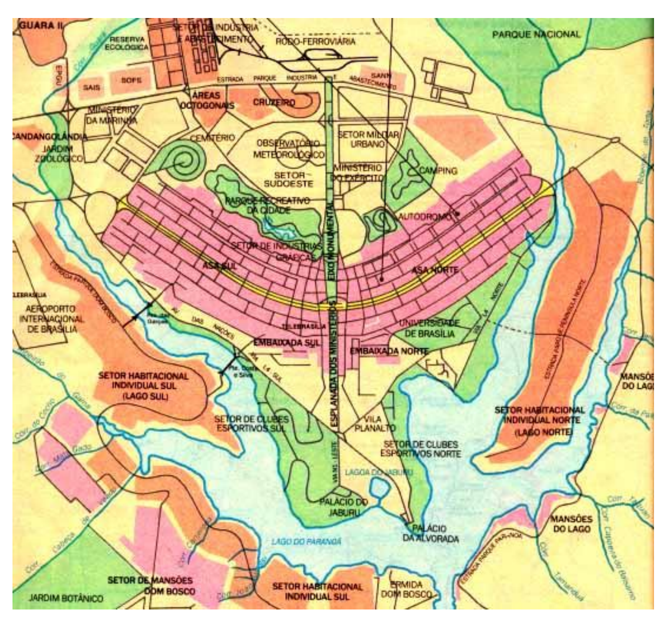


شكل 4: مخطط ومنظور المدينة الإشعاعية كما تصورها لوكوربيزييه. المصدر الموقع على الإنترنيت
http://home.worldonline.dk/jgkjelds/urban.html





شكل 5: المخطط الإستراتيجي الشامل لمدينة الرياض بحسب الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض ومخطط دوكسيادس لها.



شكل 6: المخطط التوجيهي الشامل لمدينة برازيليا كما وضـــعه لوتـــشيو كوستا. المصدر موقع المدينة على الأنترنيت

http://www.geocities.com/TheTropics/3416/mapa2.jpg

وقد استمر هذا الاتجاه الشكلي الفيزيقي فـــي التخطـــيط زمنـــا طويلا. وقد ساعدت ظروف تاريخية موضوعية اكتساحه ساحة الفكر التخطيطي كل هذه المدة. ولعل أهم هذه الظروف تتمثـــل في فوضى المدن وعدم انتظام الأنشطة داخلها بسبب تـــأثيرات الثورة الصناعية ثم ظروف الحرب العالمية والحاجـــة الملحـــة لإعادة الإعمار وتجديد ما هدمته الحرب. كل هذه العوامل كانت شروطا موضوعية أدت إلى طرح المـــشكلة التخطيطيـــة فـــي صيغتها الفيزيقية المرفولوجية فكان الجواب مركزا على جانب الشكل والتصميم وكان الحكم الأول والأخيـــر علـــى الناحيـــة الجمالية للشكل وتناسق عناصر بنائه. وقد تجسد بوضوح فـــي حركة بناء المدن والعواصم الجديدة التي اجتاحت العـــالم فـــي فترتي الستينات والسبعينات من القرن الماضي. ويكفي في هذا الخصوص أن نذكر على ســـبيل المثـــال لا الحـــصر مدينـــة شانديغار للوكوربيزييه ولتشوارث وملتـــون كينـــز والريـــاض عاصمة المملكة السعودية التي خططها دوكسيادس Doxiadis عام 1971 (شكل 5) وبرازيليا التي وضع مخططهـــا لوتـــشيو كوستا Lucio Costa (شكل 6).

وما أن أفاق العالم من ذهوله بسبب تأثيرات الحـــرب العالميـــة وإرهاصاتها حتى بدأ يعيد النظـــر فـــي كثيـــر مـــن مـــسلماته التخطيطية. فالذوق الفني الجمالي يتغير بتغير الـــزمن وبتغيـــر أحوال الناس. فما كان يُعد جميلا في فترة من الفترات أصـــبح يمجُّه الذوق، وأخذت ساحة هذا الاتجاه في التراجع إلى أن كان تفجير مجمع بروث إيغو السكني في أمريكا عام 1972 (شـــكل 7) حيث تم دك المسمار الأخير في نعش الاتجـــاه التـــصميمي العمراني في التخطيط.



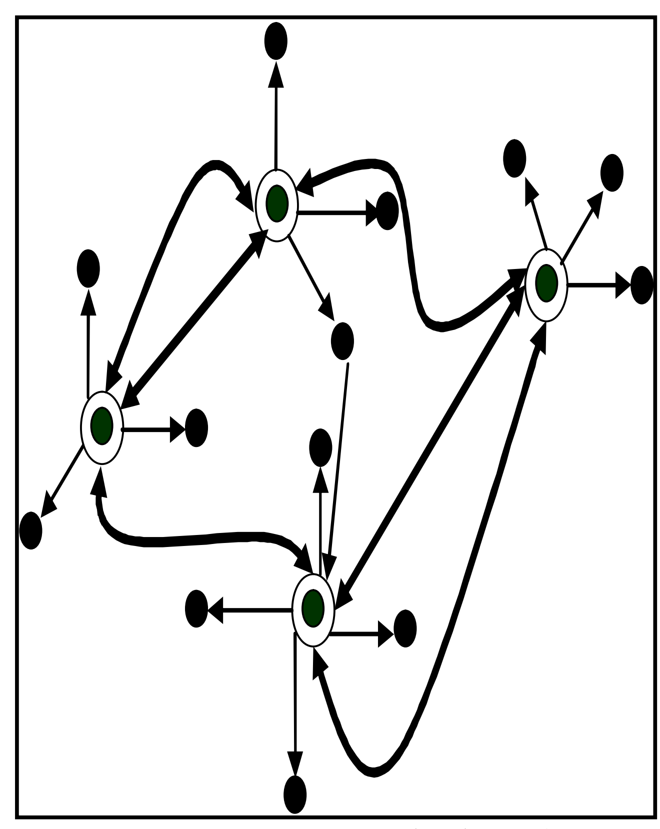
شكل 7و8: مشروع بروث إيغو رمز عمران تيار الحداثـــة ومبادئـــه قبـــل وأثناء هدمه بالمتفجرات. المصدر

http://en.wikipedia.org/wiki/Image:Pruitt-Igoe-
http://www.answers.com/topic/pruitt-igoe- overview.jpg
collapses-jpg

6. اتجاه أنظمة الأنساق التحليلية في التخطـــيط Systems Analysis-Oriented Planning

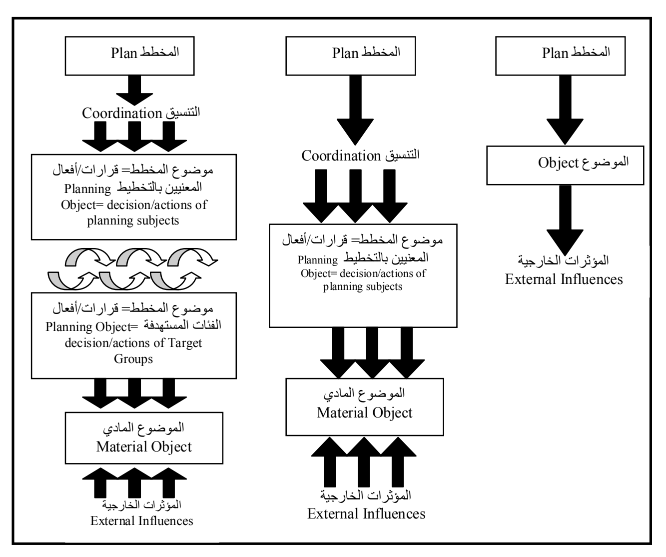
بالمقابل ظهر اتجاه آخر يعتمد على دراسة العلاقات الوظيفيـــة القائمة بين المناطق داخل المدينة ذاتها وبين المـــدن وأريافهـــا والمدن بعضها ببعض. ينهل هذا التيار من تطور العلوم ويتأثر بمناهجها البحثية وأساليبها التحليلية في دراسة العلاقـــات بـــين عناصر المنظومة النسقية الواحدة. ومن هذا المنطلق لـــم تعـــد الأحكام القيمية على الأشياء والأشكال من منظور جمالي فنـــي بحت بل أصبح الأمر يتعلق بمدى فعالية البناء النسقي ومتانـــة العلاقات بين عناصره. ومن هنا أصـــبحت النظـــرة النـــسقية للتخطيط تُغلِّب جانب الفعالية فـــي التنظـــيم والجـــودة والأداء (Taylor: 1999). كما أصبح لا يُنظر إلى أشكال المباني بقدر ما يُعول على طبيعة العلاقات الاجتماعية التـــي تـــربط بـــين مختلف الفئات في المدينة بعضهم ببعض وبأنشطتهم الاقتصادية

والترفيهية وغيرها. ووفقا لهذا المنظور النسقي تغير مفهوم الفراغ من كونه فراغا ذو أبعاد هندسية إلى مفهوم الفراغ الإنساني ذو الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. أي أنه بتعبير آخر تحول مفهوم الفراغ العمراني من فراغ ذي أبعاد فيزيقية محسوسة إلى فراغ ذي أبعاد ثقافية رمزية غير مرئية وغير محسوسة مادياً. وما دام الأمر كذلك فإن الأسلوب الذي يناسب التخطيط ليس أسلوب رص الأشكال العمرانية وتناسقها وإنما أسلوب التحليل العلمي للأنساق ودراسة علاقات عناصرها بعضها ببعض. ومن هنا لم يعد التخطيط هو فن صياغة الأشكال وإنما هو أسلوب اتخاذ القرارات التخطيطية السليمة. وبمعنى آخر فإن التخطيط عرف تحولاً جذرياً في جوهره، فلم يعد كما كان غاية في حد ذاته بل أصبح وسيلة لغاية.



شكل 9: العلاقات والتدفقات في الاتجاه النسقي

ومن هنا جاء اعتراض فالودي (2002، 2000) Faludi على التخطيط كمنتج وكأشكال وكمخططات بل هو أساسا أسلوب في صياغة السياسات واتخاذ القرارات التخطيطية. وبناء عليه فإن تقييم المخططات لا يتم من منظور مدى مطابقة مخرجاتها ونتائجها لما تم تبنيه وصياغته في أشكال على المخطط وإنما يكون التقييم على مدى مساهمة المخطط في تحسين وترقية فهم صانعي القرار واستيعابهم للمشاكل الآنية والمستقبلية التي ستطرأ على الساحة العمرانية. فجدوى المخطط تكمن في مدى إسهامه في تمكين أصحاب القرار من استيعاب المشكلة وإدراك أبعادها ثم مدى نجاعته في التأسيس لعملية التواصل والتحاور في المراحل الموالية من العملية التخطيطية (2002، 2000) Faludi. الشكل 10 الموالي يبين هذه الفكرة بوضوح تام.



شكل 10: أساليب التخطيط التقليدية والحديثة. يمثل الشكل إلى اليمين الأسلوب التقليدي وفيه تكون فعالية المخطط أن يتطابق المنتج النهائي مع ما هو مجسد في المخططات. أما التخطيط الذي يهتم بإعداد السياسات وكذلك التخطيط التفاعلي فإن فعاليتهما تكمن في مدى جودة الأداء التي يحققانها (العمودان المتبقيان إلى اليسار). عن فالودي وماصطوب 1997 بتصرف.

7. الاتجاهات الجديدة في نظرية التخطيط New Directions in Planning Theories

تشهد ساحة التخطيط في الوقت الراهن محاولات عديدة في التنظير للاتجاهات الجديدة التي يمكن أن تكون منحى من المناحي التي سيسلكها التخطيط. فمع انتهاء عصر التخطيط العلمي العقلاني كشكل مهيمن على نظرية التخطيط، فُتح المجال أمام بروز مجموعة من التوجهات النظرية، بعضها يهتم بالتخطيط كظاهرة وبعضها الآخر يركز على ما ينبغي أن يكون عليه التخطيط وما هي أهدافه ومراميه؟ بعض هذه النظريات ظهرت كردة فعل للإخفاقات والانتكاسات التي عانى منها التخطيط بسبب طغيان التفكير الحداثي والتخطيط التكنوقراطي. فتعاظم الحركات الاجتماعية وتطور تنظيمات المجتمع المدني كلها أدت لتغيُّر اجتماعي تمخض عنه تغيير في ممارسة التخطيط ذاته. من هنا بدأ الاهتمام بالاتصال والتواصل

كوسائط لتمكين هذه المجموعات والتنظيمات غير الحكومية أن تعمل خارج إطار الدولة وأحياناً ضدها. وهذا ما دفـــع بجـــون فورستر (1989) John Forester وآخرون ليزعموا بأن التواصل communication هو أهم عنصر في التخطيط نشاطاً وممارسة. فالتفاعل مع مختلف الأطراف والفاعلين وتبليغ الأفكار وتشكيل الآراء وصياغة الحجة ومناقشة الاختلافات ثم الوصـــول إلـــى اتفاق وحصول إجماع هي أســـاس عمـــل المخططـــين. هـــذا الأسلوب أصبح بديلاً لطريقة عمل المخططات خلـــف مكاتـــب الخبراء المخططين التي كانت سائدة في السابق. فميدان الحيـــاة العامة 'life-world' بتعبير هابرماس Habermas منفصل عـــن نظام 'the system' الحكومة والاقتصاد الرسمي، وبالتالي فمـــن غير الممكن تدبير شئون المجتمع العمراني وتفاعله مع المدينة بذات الوســـائل البيروقراطيـــة التـــي يـــستخدمها التكنـــوقراط والخبراء. فالتواصل بين مختلف الفاعلين ونقاشاتهم وتفاهماتهم هي الأنسب لتدبير أمر المجموعات المتنافسة علـــى فراغـــات المدينة. فقوة الحجة ورجاحة الرأي هي التي تحـــدد مـــصداقية موقف معين وهي أساس الوصول لاتفاق ولحـــصول إجمـــاع. ولابد من الإشارة إلى ضرورة تحييد السلطة والقـــوة حتـــى لا يحدث إخلال بظروف التبليغ والاتصال وتشويهه.

ويمكن أن نجمل هذه الاتجاهات في خمسة اتجاهات رئيسة هي: اتجاه تخطيط مدينة الثقافات الإثنية المتعـــددة Multi-ethnic or Multi-cultural City Planning (Leonie Sandercock) والاتجاه التواصلي/التعاضدي Communicative/Collaborative Planning (Healy, Innes) واتجاه المدينة العادلة Just City لفاينـــستاين Fainstein والاتجـــاه التـــصميمي للعمـــران الجديـــد New Urbanism واتجاه الممارسة الحكيمة في التخطـــيط Phronetic Planning (Flyvbjerg). وفيما يلي استعراض للخطوط العريضة لكل اتجاه

.

7-1. اتجاه تخطيط مدينة الثقافات الإثنية المتعـــددة Multi-ethnic City Planning

شهدت العقود الثلاثة الأخيرة تغيرا في التركيبة البشرية والإثنية للمدينة وتغيرت معها الظروف التي يُمارس في ظلها التخطيط. وتبعاً لذلك فقد تغيرت النظرة إلى المدينة وإلى الفراغ العمراني ووظائفه. فلم يعد يُنظر إلى المدينة باعتبارها شكلاً جامداً يضم استعمالات ثابتة، وإنما هي في تغير دؤوب واستعمالاتها في تحول مستمر. كما لم يعد المخطط يتعامل مع سكانها ككتلة متجانسة ذات مصلحة عامة مشتركة، بل صار يُنظر إليهم باعتبارهم جماعات وفرق وعرقيات متعددة لها ثقافات مختلفة ومصالح متباينة وأحيانا كثيرة تكون هذه المصالح متصارعة ومتضاربة. لهذا عملت ليوني ساندركوك على التنظير للتخطيط في المجتمعات متعددة الثقافات والأعراق. فهي ترى أن هذا المجتمع المدني المعاصر بتعدد أطيافه من أعراق وطوائف وإثنيات يكون أميل للمقاومة من أجل تثبيت الهويات ومقاومة الاستلاب. وبالتالي فإن الحركات الاجتماعية هي عناصر للتغيير (Sandercock, 2000). من هنا بات من الضروري التركيز على المدينة العادلة اجتماعياً socially just city كما يتعين الحرص على المطالبة بالهوية الثقافية قبل أية مطالبات مادية. فالمدينة العادلة برأيها هي تلك التي تعلي من شأن الخصوصيات الثقافية وتسعى لتحديدها من خلال طرق أخرى مغايرة للمعرفة العلمية الغربية التي يتمتع بها الخبراء المخططون. وهذا ما يرسم علاقات جديدة ما بين المخطط والمجموعات التي يخطط لها ومعها. وهي هنا تلتقي مع هيلي في التركيز على المعرفة المحلية 'local knowledge' المتراكمة والتشكيك في معرفة الخبراء 'expert knowledge'.

وتشير ساندركوك (1997) Sandercock أن هناك ثلاث قوى اجتماعية وثقافية هي الهجرة بين الدول وظروف الاستعمار وتنامي حركات المجتمع المدني، كلها ساهمت لتجعل من مفهوم الاختلاف في المدينة أحد المواضيع الملحة في التخطيط تنظيراً وممارسة. فميدان التخطيط غالبا ما أهمل وتناسى قضايا الأقليات الإثنية في المدينة ولم يعرها الاهتمام اللازم. وقد ولَّـــد مثل هذا الإهمال مشاكل عديدة في الأحياء الهامشية ومراكز المدن. ولقد بين كثير من الباحثين عدم جدوى أساليب التخطيط التواصلي في معالجة قضايا الاختلاف في المدينة والصراع بين القوميات (بريدي Burayidi; 2000). تقترح ساندركوك أسلوب التخطيط العلاجي الذي يعتمد الحوار بين الأطراف المتنازعة ليُفضوا ويصرحوا باهتماماتهم لبعضهم البعض. وهو ما يتطلب تخطيطاً تواصلياً مفتوحاً يعتمد التفاوض والوساطة لفض النزاع مع المعنيين بالمشكل أنفسهم. كما تدعو لتشجيع

سياسات الاندماج والتسامح بين الثقافات.

وتماشياً مع هذا المنطق، فقد تغيرت النظرة إلى الفراغ العمراني ذاته الذي لم يعد مجرد أبعاد فيزيقية هندسية بل أصبح له أبعاد اجتماعية واقتصادية مشحونة برموز وقيم ثقافية وعرقية مختلفة. هذه العوامل كلها أعطت أبعاداً جديدة للعملية التخطيطية أجملتها الناقدة ليوني ساندركوك Leonie Sandercock (2000) في ضفيرة واحدة أسمتها نظرية تخطيط المدينة الإثنية المتعددة Multi-ethnic City Planning. فاختلاف الثقافات وتعددها في المدينة وتعايشها ضمن حدود الفراغ العمراني بالرغم من التباين الشديد بين رؤاها ومصالحها أصبح يفرض على التخطيط تحديات جديدة تتمثل في إدارة هذا التعايش وحسم متناقضاته والحفاظ على توازناته.

بهذا يكون أصحاب النظريات التواصلية في التخطيط قد نقلوا النقاش من مخرجات التخطيط Planning Outcomes إلى مسار العملية التخطيطية ذاتها Planning processes، ومن النتائج consequences الناجمة عن المخططات إلى الوعي consciousness بها. وعليه فإن دور المخطط في هذا السياق هو ربط المعرفة بالفعل لتمكين المجموعات المستضعفة من مقاومة الاستغلال ومحاولات التهميش. وهذا بالضبط ما أشارت إليه الباحثة باتسي هيلي Patsy Healey (1997) في تعريفها للتخطيط على اعتبار أنه "إدارة التعايش ضمن فراغ عمراني مشترك".

7-2. الاتجاه التواصلي/التعاضدي في التخطيط Communicative/Collaborative Planning

إن انتكاسات التخطيط الناتجة عن فشل برامج التجديد العمراني الكبرى قد غذت الاعتراضات التي برزت ضد المبدأ الفوقي Top-down Approach في التخطيط الذي يعتمد على سيادة الخبراء وريادتهم للعملية التخطيطية وهو ما دفع بالاتجاه التواصلي في التخطيط الذي يكرس المشاركة الشعبية إلى البروز كاتجاه بديل. ويلقى هذا الاتجاه رواجا كبيرا هذه الأيام لدى المشتغلين بقضايا التخطيط حتى أنه يعد الاتجاه الطاغي على الساحة دون منازع. وهو إذ ينطلق من فرضية مفادها أن مجتمع المدينة ليس كتلة متجانسة بل هو تركيبة فسيفسائية لعدة فئات اجتماعية تتعايش متصارعة ومتجاذبة مصالحها ضمن الحدود الجغرافية للمدينة، فإن فكرة خدمة المصلحة العامة المشتركة التي عملت عليها نظرية التخطيط التقليدية لم تعد ذات شأن عند أصحاب هذا التيار لسبب بسيط هو أنهم لا يؤمنون بوجود مصلحة عامة مشتركة تتفق عليها مختلف الشرائح المكونة لمجتمع المدينة. إنما هم يقولون بتعدد المصالح حسب مواقع مختلف الفئات في المجتمع. وبنفس المنطق فإنهم يعتقدون بتعدد أوجه الحقيقة وأن لكل فئة حقائقها التي تناسبها وتؤمن بها وليست هناك حقيقة مطلقة تتفق حولها كل الفئات الاجتماعية في المدينة. ولحل مثل هذا الإشكال فإنهم لا يرون أفضل من العمل بمبدأ التواصل والحوار بين مختلف الأطراف ذات المصالح المتباينة في العملية التخطيطية. في ظل هذا الجو من التحاور والتفاوض والتخاطب فإن مهمة المخطط ستنحصر في تسهيل فرص الحوار ولعب دور الوساطة بين أطراف النزاع ومحاولة تقريب وجهات النظر بغية إيجاد أرضية تفاهم واتفاق بين مختلف المتحاورين.

ينهل النموذج التواصلي من اتجاهين فلسفيين هما المنفعية Pragmatism لجون ديوي Jean Dewey وريتشارد رورتي Richard Rorty ونظرية العقلانية التواصلية لهيبرماس Habermasian Communicative Rationality . تنطلق المنفعية من منطلق تجريبي لتبحث عن أفضل الممارسات في التخطيط فتقيّمها وتحاول استخلاص الأمثلة الناجحة لتعممها بعد اكتشاف من مارسوها وكيف جسدوها والخطوات التي سلكوها والظروف المؤسساتية التي ساعدت أو أعاقت ذلك (Hoch; 1996). أما العقلانية فإنها تنطلق من موقف تجريدي مستعملة مبادئ المنطق ونتائج العلوم التجريبية لتوجيه الفعل.

ينحصر دور المخطط حسب النظرية التواصلية في مجرد التواصل وحسن الاستماع لقضايا الناس ومساعدتهم على تشكيل إجماع بين مختلف الرؤى المتعددة. فهنا يتخلى المخطط عن دور القيادة التكنوقراطية ليصبح مجرد مزود للمعلومات ومتحسس لنقاط التقارب والتلاقي في وجهات النظر المختلفة. ومن هذا المنطلق ادعت جوديت إيناس Judith Innes (1998) أن جُل ما يقوم به المخططون معظم الوقت هو الكلام والتحادث. وهذا الحديث هو شكل من أشكال ممارسة الفعل التواصلي. وبالتالي فإن دور المخطط هو التفاوض والتوسط بين مختلف أصحاب المصالح ضمن العملية التخطيطية. كما ترى إيناس (Innes and Booher; 1999) أن تشكيل إجماع

بين مختلف أصحاب المصالح في العملية التخطيطية هو أسلوب بحث للتعامل مع قضية إيجـاد الـسياسات التخطيطيـة وإدارة الصراع واختلاف الرؤى بين متنافسين. ثـم تتـابع لتقـول أن أساليب تحقيق هذا الإجماع وهـذا التوافـق حـول المـسائل التخطيطية هي ليست أسـاليب فقـط للاتفـاق حـول وضـع المخططات وإنما هي أيضا أساليب للتدريب والتعليم والتغييـر الاجتماعي وتوليد معاني مـشتركة بـين مختلـف الأطـراف المتصارعة.

أما باتسي هيلي Patsy Healey (1997) فإنها استعملت مصطلح التخطيط التعاضدي Collaborative Planning لتصف الأسلوب الذي يمكن المشاركين من التوصل لاتفاق حول الأفعال التي ينبغي القيام بها للتعبير عن مصالحهم المتبادلة. وتعترض على الاتجاه البنيوي للاقتصاد السياسي بدعوى أن الناس لا يملكون مواقف ومصالح ثابتة. وبتعبير آخر فإن مواقف بنيوية خاصة لا تؤدي بالضرورة لمواقف سياسية تخطيطية خاصة. فالحوار والنقاش كفيلان بجعل جميع الأطراف ذات المصالح المتباينة تعي كيف تحدد أهدافها وتتفهم أهداف غيرها ومصالحهم فتتفق جميعها على أرضية مشتركة تعاونت كل الأطراف على صياغتها وبلورتها.
وبهذا تضيف هيلي (1999) بعدين آخرين لعملية التواصل، أحدهما هو الاهتمام بالمعرفة المحلية 'local knowledge' وهذا أمر يختلف عن المعرفة التقنية للخبراء والتي هي أساساً معرفة غربية. فالمعرفة المحلية هي حس جماعي مشترك common sense. وهذا النوع من الحس المتفق عليه هو أساس الممارسة ومنطقها. أما البعد الثاني فهو الفهم المشترك والثقة المتبادلة وصياغة الهوية 'identity creation'. كل هذه العوامل تسهل عملية الحصول على الإجماع وبالتالي تيسر عملية ممارسة التخطيط ذاتها.

أما جون فورستر John Forester فيركز على مبـدأ الحـوار وأسلوب التواصل. فهو يرى أن عمليـة الوسـاطة ضـرورية لتمكين الأطراف المتـصارعة أن تـسمع لتمكـين الأطـراف المتصارعة أن تستمع لمواقف وآراء بعـضها الـبعض علهـم يجدون أرضية مشتركة تحقق وفاقهم وإجماعهم. أما ساندركوك Sandercock فإنها قامة بزحزحة نظرية التخطيط من مسارها التقليدي إلى مسارات تتناول فيها حكايات الفئـات الاجتماعيـة المستضعفة والمهمشة في المجتمع، أي أنهـا بهـذا تزحـزح التخطيط عن برجه العاجي الاحترافـي لتـسحبه إلـى سـاحة الصراع السياسي كما يحصل في دنيا الناس. فإذا كان فورستر يبحث عن وفاق واتفاق جماعي فإن سـاندركوك تفـتش فـي المقابل عن عدالة اجتماعية تنصف أصحاب الأصـوات غيـر المسموعة في المجتمع، وهذا من شأنه أن يفتح مجالات واسعة أمام نظرية التخطيط ليُبحث فيها.

ومن الانتقادات التي توجه لهذا الاتجاه هـي كـون الوحـدة الأساسية في هذا النموذج هي الحي السكني وهو ما يعنـي أن المجتمع الكبير لا أهمية له في النموذج. إن المحاولـة الحثيثـة لهذا الاتجاه في الوصول إلى إجماع قد تعني أنه إمبريالي الثقافة حيث أنه يسعى إلى إلغاء الخصوصيات المحلية وذوبان ثقافات الأقليات ليسويها بشيء يسميه الثقافة المتفق عليها أو المُجمـع حولها وهي لن تكون سوى ثقافة الأغلبية والتي هي ثقافة من له الغلبة ورأي من له السلطة. فهو بهذا ذو طبيعة محافظة رافضة للغير الذي لا ينسجمالتيار العام ولا يتناغم مع الثقافة السائدة

7-3. اتجاه المدينة العادلة The Just City Movement

بالرغم من إقرار فاينستاين Fainstein بأهمية النظرية التواصلية في التخطيط إلا أنها تقول بأن صوت البعض قد يعلو أكثر من البعض الآخر فيُسمع له ويُصغى إليه. فقوة التواصل والكلام من قوة المتحدث. وترى فاينستاين Fainstein (1995) أن ضبط عملية إجرائية عادلة just process هي هدف التخطيط. فإذا كانت الإجراءات عادلة فإن نتائج التخطيط ومخرجاته ستكون عادلة أيضاً. فالتخطيط في العقود الأخيرة يبدو أنه مهتم إلى حد كبير بالتنمية العمرانية أكثر من اهتمامه بجحافل السكان محدودي الدخل الذين يتواجدون بالمدينة. هذا التركيز على التنمية أدى إلى تراجع الاهتمام بتحسين أوضاع الفئات المهمشة. لهذا تدعو فاينستاين Fainstein إلى ضرورة عكس الأولويات بحيث تصبح مفاهيم العدالة والديمقراطية والتنوع الإثني في صدارة اهتمامات المخططين ولتتدحرج مفاهيم التنمية وتعظيم مكاسب الاستثمار إلى مراتب دنيا في قائمة الأولويات. فباسم التنمية العمرانية يتم إقصاء معظم السكان محدودي الدخل من الاستفادة من الموازنات العامة التي توجه عادة لمصلحة الميسورين والمتنفذين في المدينة. لهذا ألفت كتابها المدينة العادلة The Just City والذي سعت من خلاله لتطوير نظرية عمرانية للعدالة الاجتماعية urban theory of justice، حيث ضمنته أسساً لتقييم السياسات التخطيطية والمشاريع العمرانية بحيث تكون العدالة الاجتماعية هي العامل الحاسم في التقييم

بدل التنمية بالمفهوم النيوليبيرالي. فهي ترى أهمية معرفة من الرابح ومن الخاسر من وراء السياسات العمرانية حتى لا تُجير لصالح من هو أقوى وأكثر تنفُّذاً. ولهذا فإذا قام المخططون بتقييم مخططاتهم وفقاً لمعايير التنوع والديمقراطية والمساواة diversity, democracy, and equity لتغيرت النتائج التي ينتهون إليها.

7-4. نقد الاتجاه التواصلي

يتمثل ضعف الاتجاه التواصلي في جانب الممارسة حيث كشفت المعاينة الميدانية أن رأي الأقوى هو الذي يهيمن أثناء عملية تنفيذ المخططات. ولقد أشارت فاينستاين (2000) Fainstein إلى قصور يكتنف نظرية التواصل في التخطيط مفاده أن هناك فرقاً شاسعاً بين الادعاءات الخطابية والفعل. وأما القصور الثاني فيتمثل في الوقت الطويل الذي تحتاجه مخططاته لترى النور مما يدفع ببعض المشاركين للضجر والإحباط من طول عملية الأخذ والرد. أما في حالة تخلي المخططين عن دورهم الريادي في العملية التخطيطية فإن المخططات غالباً ما يكون مصيرها غبار الرفوف ويصبح الأمر كمن يسمع جعجعة ولا يرى طحيناً. ومن نقائص هذا الاتجاه أيضا أن التحليل يتم تعويضه بادعاءات أخلاقية ويصبح الخطاب المثالي هو هدف التخطيط وليس المدينة أو المجتمع والاقتصاد. وهناك هوة فاصلة كبيرة بين أحلام النظرية وواقع المجتمع.

ومن هذا المنطلق جاء انتقاد فليجبرق وريتشاردسون Flyvbjerg and Richardson (2000) لهذا الاتجاه التواصلي في التخطيط communicative planning لأنه يعيق فهم دور السلطة في صياغة المخططات. لذلك فهما يدعوان لضرورة التركيز على ما يجري بالفعل على أرض الواقع وتحليل تأثير السلطة فيما يحصل من منظور ميشال فوكو Michel Foucault بدل الإهتمام بما ينبغي أن يكون عليه هذا الواقع كما يرى رائد الاتجاه التواصلي هيبرماس Habermas. يكمن قصور نظرية التواصل العقلاني لهبرماس في عدم التوفيق بين المثال والواقع وبين الطموحات والإنجازات، فهي تصف حلم العقلانية التواصلية لكنها لا تقدم شيئا عن كيفية بلوغها والوصول إليها. وحيث أن أي خطاب أو تواصل لا يمكن أن يكون إلا مخترقا من السلطة فإنه من غير الممكن التفكير في نظرية التواصل بمعزل عن السلطة. ثم إن الوضعية المثالية للتحادث والحوار Ideal Speech Situation التي يفترضها هذا الاتجاه التواصلي/التعاضدي لا يمكن توفرها مما يؤدي لخلل وقصور في عملية التواصل ذاتها.

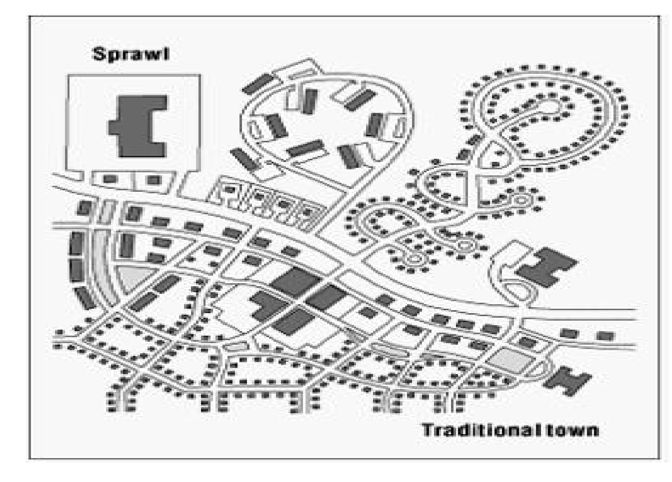
إن الأفكار الجديدة غالبا ما تؤدي إلى تعبئة الحركات الاجتماعية التي تُحدث بدورها تغييراً في الرأي العام وفي الوعي الجماعي مما ينتج عنه بروز سياسات عامة جديدة واعتمادها. وهنا لابد من الإشارة إلى أن هذه السياسات والمواقف الجديدة ليست وليدة تفاوض وحوار أو إجماع حاصل بين مختلف الأطراف ذات المصالح المتباينة وإنما هي نتيجة شعور بعدم الرضى لدى حركات وقوى اجتماعية مؤثرة في الرأي العام. فهي بهذا وليدة تعبئة السلطة وتنظيم موازين القوى. فالكلمات وحدها لا مفعول لها ما لم تكن لها أسنان تعظ بها، أي ما لم تكن لها قوة تدعمها وتفرضها. وبعبارة أخرى فإن قوة الكلمات من قوة المتكلمين وإلى هذا يشير فليبجرق Flyvbjerg (1998) أن ديمقراطية الكلام والتفاوض والحوار المبنية على العقلانية لا تكفي لحل المشاكل ما لم تدعمها قوة السلطة. وبالتالي فليست هناك حاجة لقوة الحجة وإقناع الكلمات ما دامت قوة السلطة وحدها كافية وتُغني عن الاتفاق والاقتناع.

7-5. اتجاه العمران الجديد The New Urbanism

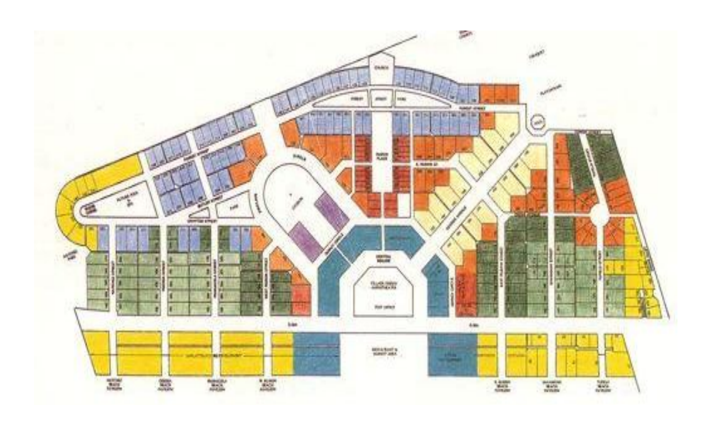
إن اتجاه العمران الجديد هو اتجاه تصميمي في التخطيط تنادى به المعماريون والصحفيون ويكاد يكون أقرب إلى الإيديولوجيا منه إلى النظرية. يبدو أن دعاة العمران الجديد متأثرون إلى حد بعيد بالمنظرين الأوائل من أمثال لوكوربيزييه Le Corbusier وإبنزر هوارد Ebenezer Howard وفريديريك لو أولمستيد Frederick Law Olmsted وكاميلوسيت Camillo Sitte في خلق مجتمع عمراني محلي مترابط ويحاول أن يجسد بالتالي صورة على أرض الواقع لشكل المدينة الجميلة والمرغوب فيها. يقول أصحاب هذا الاتجاه بضرورة احتواء التصاميم العمرانية على أنماط متنوعة من المباني وتمازج الاستعمالات وتداخل مساكن مختلف الشرائح الاجتماعية واهتمام أكبر بالفراغ العمراني العام. يشكل الحي السكني الوحدة الأساسية في التخطيط ويشترطون فيه أن يكون حجمه محدودا وأبعاده معقولة ومركزه واضح المعالم بحيث لا يكاد يتجاوز مسافة خمس دقائق مشي على الأقدام في نطاق تغطيته (كونسلر ;Kunstler 1996). ولعله من شدة تأثر دعاة العمران الجديد بالمؤسسين الأوائل صياغتهم لميثاق العمران الجديد Congress of New

(CNU) Urbanism الذي يرسم الخطوط العريضة للتـصميم وفق مبادئ هذا الاتجاه. ويعيد هذا الميثاق إلى الأذهان الميثـاق الذي تم إعداده بزعامة لوكوربيزييه يحدد فيه مبـادئ العمـارة والعمران لتيـار الحداثـة International Congress for Modern Architecture (ICMA).

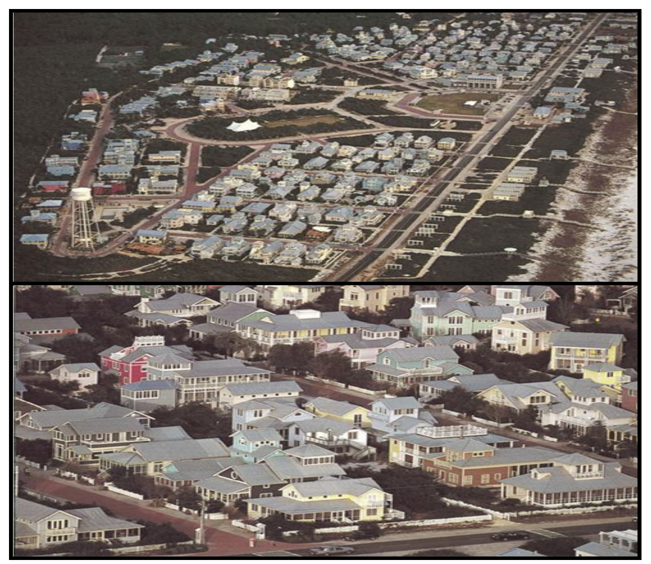
يُغـلِّب اتجاه العمران الجديد تصميم الـشكل الفيزيـائي فـي المخططات على أسلوب وإجراءات إعدادها. وتُعد مدينة سيسايد الجديدة في فلوريدا Seaside, Florida أهم منجزاته. كما أنـه يعلن حربا ضروسا لا هوادة فيها ضد التمدد العمرانـي الـذي يلتهم الضواحي وينتج الاختناقات المرورية والأشكال القبيحـة لمباني الأشرطة التجارية. ويبدو أن دعوة العمران الجديد هـي رد فعل لعدم الرضا عن أشكال التطوير والتوسـع العمرانـي الحالية مع حنينه إلى الأشكال التقليدية في العمران. ومن هنـا فإن هذا الاتجاه يقوم بالدور الذي يرفضه الاتجـاه التواصـلي والمتمثل في حملة الإقناع والتسويق لفكرة تخطيطيـة وأشـكال عمرانية محددة. ولعل هذا الإلحاح فـي التـسويق لأشـكالهم وقناعاتهم بحتمية التأثيرات العمرانية هـو مـا يعـاب علـى العمرانيين الجدد. وهو هنا يكرر نفس أخطـاء تيـار الحداثـة بتركيزه على الأشكال الفراغية أكثر من الأساليب الاجتماعيـة. وكأنه يريد أن يقنعنا بأن التخطيط لا يعدو أن يكون أكثر مـن مجرد تصميم أوعية فراغية عمرانية تضم بشرا وليس تنظيمـا لأنسجة من العلاقات الاجتماعية تتجاذبها صـراعات الـسلطة والمصالح الاقتصادية والإيديولوجية والبنى الثقافية.



شكل 11: مقارنة بين المخططات التقليدية للمدن والمخططات الحديثة



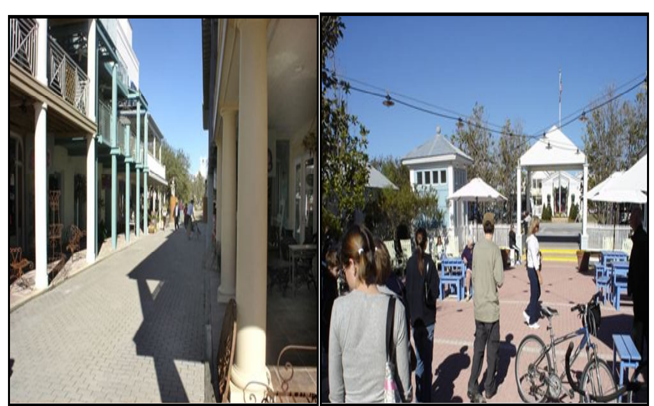
شكل 12: مخطط مدينة سيسايد، فلوريدا المصدر دوانـي بلاتـر زيبـارك Duany Plater-Zyberk



شكل 13: نظرة بانورامية لمدينة سيسايد فلوريدا المصممة وفـق مبـادئ العمران الجديد. المصدر

http://www.greatbuildings.com/cgi-bin/gbg.cgi/Seaside.html/30.320285/-86.137447/17

http://www.dpz.com/popup3.asp?Project_Number=7903&ImageNumber=5&TotalImages=25&Project_Name=Seaside



شكل 14-15: منظر لأحد الشوارع المصممة وفق مبادئ العمران الجديد. المصـدر
http://www.dpz.com/popup3.asp?Project_Number=7903&I

mageNumber=6&TotalImages=25&Project_Name=Seaside
http://www.dpz.com/popup3.asp?Project_Number=7903&ImageNumber=9&TotalImages=25&Project_Name=Seaside

يهتم هذا النموذج بالبحث عن الأشكال العمرانية الجميلة التي أثبتت مزاياها في أنسجة العمران التقليدي ويثور ضد الأنماط المستحدثة في العمران معتبرا التمدد العمراني الذي يكتسح الضواحي الخضراء ألد أعدائه. كما يدعو إلى نوع من التعبئة الجماهيرية لصالح أنماط الفراغات التي عرفت في التراث العمراني المحلي ويسعى للنسج على منوالها. كما يفضل تركيز الاهتمام على قضايا الحي والمدينة ويدعو إلى التمازج والاختلاط بين مختلف الاستعمالات العمرانية ويحاول أن يعيد مجد الشارع الرئيسي في ظل محيط عمراني ديمقراطي يلتزم فيه السكان بالدفاع عن قضايا البيئة والعمران. ويرى في المشاركة الشعبية تمكينا للسكان لتدبير أمور العمران والبث فيها وتوجيهها، إلا أنه لا يطرح أي سؤال عن مصدر هذه القوة ومن أين يأتي هذا التمكين Empowerment.

7-6. اتجاه ممارسة التخطيط بحكمة Phronetic Planning

إذا كان هيبرماس Habermas يرى أن الإجماع والاتفاق هو هدف عملية التواصل فإن فوكو Foucault يرى أن أسلوب النضال والكفاح بدل الإجماع هو أساس الممارسة الحرة. وما دام الأمر يتعلق بالممارسة فإن فوكو ينشد الحكمة فيها Phronesis ليُقَوِّم العملية التخطيطية، في حين أن هيبرماس يتطلع إلى استخلاص المعرفة النظرية منها episteme ليعمّمها على العمليات التخطيطية. تقدم معيارية هيبرماس مثلاً أعلى ينبغي المثابرة والاجتهاد لبلوغه لكنها لا تقدم دليلاً أو استراتيجية تمكّن من تحقيق هذا الهدف الأسمى المنشود. بالمقابل فإن تحليل فوكو هو الذي يقدم نظرية تخطيطية تفيد في فهم كيفية اشتغال التخطيط وممارسته في الواقع وتساهم في إحداث التغيير الاجتماعي من خلال التخطيط. فإذا كان هيبرماس يعتبر الصراع داخل المجتمع أمراً خطيراً ومهدِّداً للنظام، فإن فوكو يرى أن إلغاء الصراع يعني إزالة الحرية، ذلك أن ميزة الدخول في الصراع هي جزء من مشروع الحرية والتحرر. فالديمقراطية الراسخة هي التي تكفل الصراع. كما أن الفهم الناضج لها ولدور التخطيط فيها ينبغي أن يقوم على فكر يكون الصراع والسلطة في مركز اهتماماته. هذا الفهم للتخطيط كما تجري ممارسته وكأسلوب للصراع النضالي التحرري يمنح مفهوماً عالياً لنظرية التخطيط أحسن مما يقدمه الفهم المؤسس على الخطاب المنفصل عن أرض الواقع والذي يبحث عن الإجماع (فليبجرق Flyvbjerg; 1998).

للتأسيس لنظرية ممارسة التخطيط بحكمة ينهل فليبجرق (Flyvbjerg; 1998) من نظرية أرسطو الذي يميز بين ثلاثة مستويات من المعرفة. المعرفة العلمية episteme وتشمل العلوم النظرية، والمعرفة التقنية techne ويُقصد بها المهارات التي تمكننا من القيام بالفعل، والمعرفة الحكيمة phronesis وهي إدراك ما ينبغي القيام به في ظروف محددة وضمن شروط معينة. فإذا كان النوعان الأولان للمعرفة يقبلان التعميم والتكرار فإن النوع الثالث غير قابل لأي تعميم على الإطلاق، ذلك أنه مرتبط بحالة محددة لها ظروفها الخاصة مما يستدعي معالجة فريدة من نوعها تمليها وتحددها خصوصية الحالة ذاتها. فالممارسة الحكيمة *phronesis* هي إذاً ذلك النوع من المعرفة التطبيقية التي تمكن من اتخاذ القرارات بحكمة وهو ما لا يمكن تفسيره منطقياً وعقلانياً. وهنا تكمن أهمية هذه المعرفة في التخطيط لأنها تضيف بعداً معيارياً وأخلاقياً normative/ ethical لتطبيق *العلوم episteme* والتكنولوجيا *techne* في التخطيط وممارسته بحكمة. فهذا النوع من المعرفة هو الأنسب والأنجع لعملية التخطيط لأنه يخص جانب الممارسة والتطبيق، أي التعامل مع الحالة العمرانية كحالة خاصة فريدة ومميزة وتستدعي بالتالي تدخلاً خاصاً فريداً ومميزاً.

ومن هذا المنطلق فإن المطلوب من المنظرين ليس أن يصوغوا نظرية في ممارسة التخطيط Theory on planning practice وإنما البحث عن نظرية لكيفية ممارسة التخطيط Theory for planning practice. ينطلق المنهج الأول في التنظير من البحث في الممارسة كشيء مجرد وخال من قيم الصراع والتحرر، أما المنهج الثاني فإنه يُضفي على الممارسة شيئا من الحكمة ويجعل منها أداة للصراع التحرري وإدارة فن الممكن في ممارسة التخطيط. بناء على هذه النظرة فإن المخططين الذين اتخذوا مواقف سلبية من الأحياء المهمشة في المدن كأحياء الصفيح والصنادق والأعشاش ووصفوها بأقبح الأوصاف كالسرطان الذي ينخر النسيج العمراني للمدينة غيَّروا هذه المواقف واعتبروا هكذا أحياء موطناً لمجتمعات بشرية ناشئة Communities in the making تصارع من أجل تحسين أوضاعها وتكافح من أجل اندماجها في مجتمع المدينة الأم لتنتزع الاعتراف بها كأحد مكوناته في ظل توازنات السلطة

والصراعات القائمة.

فالعين التقنية والخبيرة للمخططين لا ترى فـــي هـــذه الأحيـــاء المهمشة إلا نسيجاً عمرانياً مهترئا ومتهالكاً، في حين أن عـــين الحكمة في ممارسة التخطيط ترى فيها نسيجاً اجتماعياً منظمـــاً ويبذل جهوداً حثيثة وصراعاً مريراً للاندماج والتكيف مع نسيج المدينة العام فيُغْني ثقافتها ويثري مجتمعها. وما دامت هي كذلك فإن التوصيات التي يخرج بها دعاة هذا الاتجـــاه ليـــست هـــي توصيات الإقصاء وهدم الأكواخ والعقاب الجمـــاعي بالإبعـــاد القسري والعنيف أحيانا إلى المواطن الأصلية التـــي هجروهـــا. على العكس ستنص التوصيات في جوهرهـــا علـــى الاهتمـــام بدراسة السبل الكفيلة بتسهيل اندماجهم وتـــسريع تـــأقلمهم مـــع المحيط الحضري الذي اختاروا الاستقرار به. فالتعامل بحكمـــة مع كل حالة عمرانية باعتبارها ظاهرة عمرانية خاصة وحالات اجتماعية وإنسانية فريدة أنسب وأفـــضل مـــن التعامـــل معهـــا بعموميات منظري التخطيط وجفاء معايير وضوابط ممارســـة المهنة.

لهذا ينتقد فليجبرق (1998) Flyvbjerg، أحد أهـــم دعـــاة هـــذا الاتجاه، في مؤلفه عن تجربـــة آلبـــورغ Aalborg بالـــدانمارك بعنوان "العقلانية والسلطة: الديمقراطية في الممارسة Rationality and Power: Democracy in Practice، ينتقـــد الاتجاهـــات المعيارية التي طغت على نظرية التخطيط حتـــى الآن بـــسبب إيمانها واعتقادها الراسخ والمسبق في الجهاز الإيديولوجي الذي يؤسس لمهنة التخطيط ويدعمها. فكثيـــر مـــن منظـــري هـــذه الاتجاهات يتقبلون دون مناقشة مبادئ الحقيقة والعدالة والمساواة التي يبشر بتحقيقها التخطـــيط بأســـلوب تـــدريجي وعقلانـــي. للتخلص من هذه النظرة التأملية الحالمة يدعو فليبجـــرق للقيـــام بنقد مستمر ومتواصل لموضوع التخطيط. مثل هـــذا النقـــد لا يمكن أن يكون ذو جدوى إذا كانت نقطة الانطلاق هي التـــسليم بمبدأ أن التخطيط جيد أو أن نتمنى له ذلك. مـــا ينبغـــي فعلـــه بالمقابل هو التعامل مع التخطيط كظـــاهرة يمكـــن ملاحظتهـــا وتشريحها ونقدها ويمكن لها أن تكون جيدة أو العكس، لكن من دون إصدار أحكام أو فرضيات مسبقة. وتلـــك هـــي بالـــضبط المنهجية التي تبناها واعتمدها فليبجرق في دراسته لحالة مركز مدينة آلبورغ بالدانمارك ليخرج منها بأن الأمنيات الطيبة فـــي التخطيط لا فائدة منها وأن الأمر كله بيد السلطة التي لها قـــوة تحويل الأماني لصالحها. وبالتالي فإن المطلوب لـــيس تطـــوير التخطيط ليُلبي مصالح الفئات في المجتمع وإنما تحسيس هـــذه الفئات بأن عليها أن تكافح جاهدة لتحقق مصالحها بنفسها لا أن تتأمل وتنتظر من يجسدها لها من أصـــحاب النيـــات الحـــسنة. فنظرية التخطيط التقليدية لا تعطي إلا تفسيرات مثالية وعامـــة لمفهوم التخطيط والمشاركة. هذه التأويلات وتلـــك التفاســـير لا تمكننا من استيعاب أفكار ومناهج وممارسات التخطيط كما تتم في الواقع مع كل حالة ضمن شروطها الموضوعية الخاصة.

يرى فليبجرق أن السلطة والعقلانية عنصران أساسيان لممارسة التخطيط. ويعتقد أن العقلانية هي الملجأ الأخير لكل من تعوزه القوة والسلطة ليخلص بعدها إلـــى أن العقلانيـــة هـــي ســـلاح الضعفاء وأنه كلما تعاظمت قوة السلطة كلما تراجعت مـــساحة العقلانية في التخطيط وفي ممارسة التخطيط. ويضيف أيضا أن المخطَّط Plan هو المنطق Reason أو الوسيلة العقلانيـــة التـــي تحتاج لقوة السلطة حتى يخرج إلى التنفيذ. فالـــسلطة إذا هـــي الآلية التي تقوم بتنفيذ المخطط (المنطق) وتجسيده علـــى أرض الواقع (فليجبرق 1998 ;Flyvbjerg). ومن هنا فإن جوهر العملية التخطيطية لا ينحصر في وضع مخططات وتنفيـــذها بإشـــراك المعنيين بها بل لابد من ترقية المشاركة الشعبية إلـــى شـــراكة حقيقية في العملية التخطيطية مع ضـــرورة تمكـــين الأطـــراف المستضعفة حتى تقوم بخوض الصراع بندية وشراسة لتنتـــزع مصالحها عنوة ومن دون منة من أي طرف حى إن كان هـــذا الطرف مشبعاً بالنوايا الحسنة.

7-8. اتجاهات عمران التمرد Insurgent Urbanism

يبدو أن نظرية التخطيط المنبثقة أساساً من الفكر الليبيرالي الغربي تقف عاجزة عن استيعاب الأوضاع العمرانية في مدن العالم النامي، ولم تعد قادرة على التعامل مع واقعها وقضاياها. فالوقائع القائمة على الأرض في هذه المدن تقدم نموذجاً تخطيطياً مغايراً لما هو مألوف غريباً على الأقل. فبالإضافة إلى عدم خضوعها لهيمنة الفكر الليبيرالي، فإن أنماط الحيازة ومفهوم ملكية الأراضي فيها تتسم بالتداخل، والصراعات بين مختلف المجموعات المتساكنة في المدينة حول الأراضي العمرانية تنبئ بممارسات يومية وتؤسس لفوارق عميقة بين سكانها بحسب الأعراق والإثنيات مما يزيد في اتساع الفجوة الاقتصادية والاجتماعية ويولد صراعات وحالات عنف تتفاقم وتزداد حدتها يوماً بعد يوم. وفوق كل هذا نجد أن القاعدة الاقتصادية لهذه المدن تقوم أساساً على أنشطة الاقتصاد غير الرسمي informal economy والذي يشكل رافداً رئيساً للسكن العشوائي informal housing الذي يأوي في كثير من هذه المدن من ثلث إلى ربع سكانها. كل هذه المعطيات تجعلنا أمام ظاهرة عمرانية فريدة. وهذا ما عبر عنه بولنز Bollens (2012)

بالمدن المستقطبة polarized cities التي تتميز بالنزاع السياسي والصراع النفسي والاجتماعي، وتنطوي على حدة الخصومة والمعارضة بشكل يفوق كثيراً ما يحصل عادة في المدن المقسمة 'divided cities'. ولعل أهم ما يميز مدن الاستقطاب أكثر، هو المعارضة الشرسة للوضع السياسي القائم وفقدان الثقة في القنوات السياسية الرسمية وسعي مختلف المجموعات للالتفاف حول هويتها والتمسك بخصوصياتها والذوذ عنها وإبراز تميزها. وهو ما يُترجم عادة في شكل صراعات عنيفة داخل المدينة ويذكيها أكثر. وخير دليل على ذلك ما تشهده كثير مدن الربيع العربي من انتفاضات، وكثير من المدن الآسيوية إن في الهند أو في غيره. ونفس الظاهرة تتكرر في كل من مدن إفريقيا وأمريكا اللاتينية.

إن مثل هذه "الحقائق العمرانية العنيدة stubborn realities" (بتعبير ييفتاشال Yiftachel (2006)) القائمة على الأرض في مثل هذه المدن تفرض على المهتمين بنظرية التخطيط استخلاص بعض العبر التي تخدم تجسير الفجوة بين المنظور المستلهم للتخطيط من واقع مدن الشمال (الغرب) والمنظور المنبثق عن واقع مدن الجنوب. فالتفاعلات التي تشهدها حالياً هذه المدن "الجنوبية" قد أدت إلى تغييرات وتشنجات في العلاقات القائمة ما بين السلطات الحكومية و السكان. كما أن تفاقم واتساع الفوارق والاختلالات غذى الاعتراضات على السياسات التخطيطية المنتهجة ورفض الوضع القائم. وهذا ما نجم عنه بروز فئات كثيرة من مناصري حقوق الإنسان والمدافعين عن الديمقراطية والمناوئين لحركة العولمة وهيمنة الشركات العالمية الكبرى. كما ساعدت الأزمة المالية العالمية لسنة 2008 في تأجيج الوضع السياسي في كثير من هذه المدن. إضافة لذلك فإن السعي المحموم لبعض المدن لترقى لمصاف المدن العالمية 'world class cities' جعلها تتجه بقوة نحو إقامة المشاريع والأشكال العمرانية التي تتناغم وتتناسق مع أذواق النخبة وأنماط استهلاكها. كل هذه العوامل مجتمعة شكلت مناخاً عاماً في مدن "الجنوب" نمى حالة من الشعور بالحرمان والتهميش لدى شرائح عريضة من المجتمع العمراني ووسَّع من جبهة المعارضة والعنف في المدينة ودعم حالة التمرد على السلطة والرفض لسياساتها التخطيطية.

كل هذه الحقائق التي تموج بها مدن الجنوب جعلها تتشطر لأنماط متعددة وفئات مختلفة كلها تتنافس بحدة على الأراضي العمرانية. فهناك مدينة النخبة ومدينة المهمشين، واقتصاد رسمي وآخر غير رسمي، وسكن عشوائي وغير عشوائي، وسوق عقارية رسمية للحكومة ومطوريها وسوق عقارية أخرى عشوائية 'Slum real estate'. وهذا ما من شأنه أن يلهب أكثر حالة المقاومة ويؤجج حالة الصراع التي يشعر بها سكان المناطق المهمشة ضد النخبة العمرانية وسياسييها. كما أن تنامي أصحاب الدخول المتوسطة في المدينة من شأنه أن يغير تماماً من وجه الصراع على العمران وستعيد بالتالي تشكيل الوجه العمراني للمدينة ومبانيها المعمارية، وسيزيد أيضاً من احتدام الصراع والتباين والاختلاف في الساحة العمرانية.

أدت هذه المنافسة الشرسة على الأراضي العمرانية وتشكيلاتها التي تتميز بها مدن العالم النامي لبروز دراسات حول أشكال المقاومة لظاهرة الإقصاء الناجمة عن سوق الأراضي العمرانية. فقد استعمل بنجامين Benjamin (2008) مصطلح "عمران الحيازة occupancy urbanism " ليفرق بينه وبين ثنائية الرسمي/العشوائي formal/informal الشائعة في السوق العمرانية، معبِّراً بذلك عن الرفض المتنامي لسياسات الأراضي في الهند. وقد سايره شاتكن Shatkin (2011) في هذا الطرح حينما شرح كيف أن الأفكار العالمية لصياغة المدن تجد معارضة لها من خلال "العمران القائم على الأرض actually existing urbanisms " الذي يقوم على العشوائية والعنف والمعارضة وكلها تشكل مقاومة للممارسات الرسمية المعولمة.

إن تنامي الصراعات والعنف العمراني بسبب العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية أصبح محور مناقشات السياسات العمرانية. فالعنف العمراني قد بلغ مستويات غير مسبوقة في العديد من مدن العالم النامي لدرجة أصبح يشكل خطراً على التنمية ذاتها بحسب وينتون Winton (2004). وقد جاء تقرير البنك الدولي عن التنمية العالمية *World Development Report: Conflict, Security and Development* (World Bank, 2011) ليدعم هذا المنحى حين أقر أن اللاأمن أصبح يشكل تحدياً للتنمية في القرن 21 حيث أن مليار ونصف من البشر يعيشون في أوضاع غير مستقرة تتنازعها الصراعات والجريمة المنظمة. وقد وصف إيرل Earle (2010) الأنشطة اللارسمية في الشارع street informal activities والمظاهرات التي تحدث فيه باعتبارها أسلحة للمقاومة داخل المدينة لانتزاع ما يراه الناس المهمشون من حقوق تخصهم.

إن الإقرار بهذه الحقائق العنيدة والمستعصية للعمران في مدن العالم النامي مثل العنف الجماعي والصراع على المجال العمراني، سيدفع بنظرية التخطيط لتبني هذه العناصر الجديدة ومحاولة فهمها وتقديم الإجابات لها. فظهر ما يمكن تسميته بتخطيط التمرد Insurgency planning أو بتعبير مجالي "عمران التمرد insurgent urbanism" كأسلوب للتكفل بقضايا هذا

المواطن المتمرد insurgent citizen الذي يرفع رأسه حالياً في مدن "الجنوب". ويرجع الفضل في استعارة مصطلح التمرد insurgency وعمران التمرد insurgent urbanism لهولستن James Holston الذي وجد في دراسة له عن المدينة البرازيلية علاقة مباشرة ما بين الصراع والعنف العمراني وتفاقم حالة اللامساواة في المدينة (هولستن Holston, 2009). وبحسب ساندركوك فإن بروز تخطيط جذري Radical planning للقرن الواحد والعشرين كرد فعل عن الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية للعولمة وما تفرزه من مناخات ثقافية متعددة ومختلفة، هو ما أدى لظهور أشكال من التخطيط تقدمية progressive في طرحها وتتبنى منهج التخطيط الذي ينبع من القاعدة لتتلقفه القمة bot-tom-up planning.

8. خاتمة

من خلال هذا العرض السريع لتطور نظريات التخطيط وآفاقها المستقبلية من خلال الاتجاهات التي بدأت تبرز على الساحة مع بداية القرن الجديد يتضح أن السؤال الجوهري لنظرية التخطيط كان دائما يتمحور حول كيفية تأمين جودة الحياة العمرانية وتحسين مستواها في ظل العولمة التي تكتسح الدنيا اكتساحاً. ومن هذا المنطلق كانت النظرة المعيارية هي التي سادت وطغت على الفكر التخطيطي تنظيراً وممارسة. وللإجابة على هذا التساؤل أخذت نظرية التخطيط اتجاهات رئيسية عدة لعل أهمها: النموذج التواصلي/التعاضدي Communicative/Collaborative Planning ونموذج العمران الجديد The New Urbanism وأخيراً نموذج الممارسة الحكيمة للتخطيط Phronetic Planning.

جدير بالذكر أن هذه الاتجاهات الحديثة برزت كانتقاد وكرد فعل على طغيان التيار العقلاني الذي هيمن على فكر الحداثة Modern Thinking الذي ميز القرن الماضي والذي بدوره يمد جذوره ليغرف من عصر الأنوار Enlightenment. فقد جاء الاتجاه التواصلي كرد فعل على التخطيط المركزي الذي يُملى من علٍ Top-down Approach وكانتقاد أيضا لخطاب الأنوار Enlightenment الذي يعتمد على مبدأ المصلحة العامة الموحدة والتي يكون تحقيقها عبر تبني المنهج العقلاني. أما تيار العمران الجديد فهو صرخة ضد التطوير الذي تفرضه قوى السوق والذي يهدد نسيج الفراغ الذي يقوم عليه المجتمع العمراني. وجاء تيار الممارسة الحكيمة في التخطيط كرد فعل على طغيان النظام الرأسمالي وقساوة تعامله مع الفقراء ومحدودي الدخل في المجتمع. فقد سعى هذا المنهج ليعيد النظر في قوى السلطة من خلال عمله على تمكين Empowerment المستضعفين لخوض الصراع بندية بغرض افتكاك مصالحهم وانتزاعها انتزاعاً من دون منة من أي جهة أو سلطة. وبهذا سيكون لهم دور في إقامة المدينة العادلة The Just City وافتكاك حصتهم فيها والذوذ عن مصالحهم بها.

يُلاحظ أن جذور نظرية التخطيط تمتد بعيدا على المستوى الفكري والفلسفي لتنهل من الفكر الإغريقي ممثلا بفلسفة أرسطو وأفلاطون مرورا بهيجل وديكارت ثم نيتشة وماركس وصولا عند هيبرماس وفوكو. فهي بهذا بناء متراص لطبقات فكرية بعضها فوق بعض. فالتخطيط إذ يسعى لتحقيق المصلحة العامة للمجتمع فإنه بهذا يحلم بمجتمع فاضل ويسعى لتجسيد أهدافه وتعبيد الطريق لإنتاجه. إنه بهذا يعيد إلى الأذهان مبدأ المدينة الفاضلة التي قال بها أفلاطون. وحينما يدعو التخطيط لتمكين الطبقات المحرومة لتفتك نصيبها من الفراغ العمراني وتنتزع حقوقها وتفرض مصالحها فإنه يذكرنا بالفكر الماركسي ودعوته للصراع الطبقي دفاعاً عن حقوق الكادحين. فثنائية الخير والشر، النظام والفوضى، المصلحة العامة والمصالح الخاصة هي التي صبغت التخطيط بصبغة معيارية.

أما على مستوى النشأة والتطور التاريخي فإن الظروف التي نشأ في ظلها التخطيط كان لها تأثير حاسم وعميق على توجهه فكراً وممارسة. فالنظام العالمي كان منقسما إلى قطبين متصارعين أحدهما ينادي بالاشتراكية ومركزية السلطة والقرارات التخطيطية والملكية العامة للأراضي، في حين أن القطب الآخر يؤمن على النقيض من ذلك بالرأسمالية ويكرس الملكية الفردية وحرية السوق ويقلص من طغيان القرارات المركزية في التخطيط. في ظل وضع كهذا برز في التخطيط نموذجان: تخطيط تمارسه الكتلة الاشتراكية وآخر خاص بالكتلة الرأسمالية.

اما اليوم فمع إفلاس وزوال المعسكر الاشتراكي هيمنت الأحادية القطبية ومعها النظام الرأسمالي الليبيرالي على العالم. إلا أنه مع ذلك فإن الفكر التقدمي المادي في التخطيط لم يفلس ولم يندثر بل تأقلم مع الوضع الجديد ليظهر في شكل تيارات تنادي بالعدالة الاجتماعية والمدينة العادلة (فاينستاين Fainstein; 2000, 1997) والاتجاهات المادية في التخطيط (فليبجرق 2001 ;Flyvbjerg). فضمن هذا النظام الأحادي أصبح الاهتمام الأساسي للتخطيط هو البحث عن تحقيق جودة المستوى العام

للحياة الاجتماعية للأفراد والمجتمعات في ظل هيمنة النظام الرأسمالي. كما ظهرت ثنائية فكرية جديدة شكلت تحديات مستحدثة لنظرية التخطيط. فقد برز في ظل هذه الأحادية القطبية مجتمع متعدد الأعراق متنوع الثقافات. فهناك عدة مجتمعات مختلفة تتعايش ضمن حدود المدينة ولا يمكن لأي من هذه المجتمعات أن يدعي احتكاره للفضيلة أو يقول أنه يمثل صيغة المجتمع الذي ينبغي على الغير أن يحاكيه ويتجه إليه ليذوب فيه ويتأقلم معه. فكل الفئات الاجتماعية والأقليات الإثنية لها حق الظهور والتعبير وإبراز الذات المتميزة. من هنا لم تعد مهمة نظرية التخطيط تقضي بتحقيق مجتمع فاضل تنصهر فيه الأقليات وإنما احتواء هذا التعدد وتجسيده وإبراز جميع مكوناته وتحقيق مصالحها. وهنا لابد من إدراج مفاهيم السلطة والمعرفة في أي بناء نظري للتخطيط كما أشارت لذلك ساندركوك Sandercock ونادى به فليبجرق Flyvbjerg.

أما على مستوى الامتداد الجغرافي فإن نظرية التخطيط هي نظرية للتخطيط كما هو ممارس في العالم الغربي ممثلا بقاراته الثلاث: أوروبا وأمريكا الشمالية وأستراليا. وهي نظرية مبتورة لأنها تلغي مساحات كبيرة من تجارب مجتمعات وثقافات لها ممارساتها الخاصة في عملية التخطيط. وهذا النقص في التنظير لهذه التجارب يحتاج إلى اهتمام لتكتمل صورة نظرية التخطيط. فحتى وإن كانت كثير من النظريات المطبقة في العالم النامي مستوردة من الغرب إلا أن عملية الممارسة والتطبيق لهذه النظريات على واقع هذه الشعوب يحتاج حتما إلى إدخال بعض التعديلات والتحويرات عليها لتتلاءم وتتكيف مع الواقع الجديد. هذه المحاولات في تبيئة النظريات الغربية تشكل في حد ذاتها إثراء لنظرية التخطيط واستكمالاً لجزء كبير من النقص الذي تعانيه النظرية المصاغة في القوالب الغربية.

فالنظرة المتأنية لما يجري في مدن "الجنوب" تُبدي بروز صراع عمراني حاد وعنيف في كثير من الأحيان، وتمرد يقوم به مواطنو هذه المدن على النظام العمراني القائم أملاً في انتزاع ما يعتقدونه حقاً مشروعاً تحاول نخبة المدينة سلبه منهم. هذه المعطيات الجديدة التي يتفرد بها واقع مدن الجنوب cities of the South ألهمت بعض المنظرين للحديث عن نوع جديد من التخطيط لا نظير له في الغرب هو تخطيط التمرد Insurgency planning لعله يساهم في تقديم صورة مكتملة لنظرية التخطيط.

المراجع

[1] Archibugi, F. (2004): “Planning Theory: reconstruction or requiem for planning?” European Planning Studies, Vol. 12, No. 3, April.

[2] Burayidi, M. (2004): “Urban Planning as a multicultural cannon” in: M. Burayidi (ed.) Urban planning in a multicultural society. (Westport, CT, Praeger).

[3] Fainstein, S. (2000): “New directions in planning theory”. Urban affairs Review, Vol. 35, No. 4, March, pp: 451-478.

[4] Fainstein, S. (1977): “Justice and politics and the creation of urban space” In A. Merrifield and E. Swyngedouw (ed.) The Urbanization of injustice, pp:18-44 New York: New York University Press.

[5] Faludi, A. (2004): “Territorial cohesion: Old (French) Wine in New Bottles?”. Urban Studies, Vol. 41, No. 7, June, pp: 1349-1365

[6] Faludi, A. (2003): “Unfinished Business: European spatial planning in the 2000s”, Town Planning Review, 78(1), pp: 121-140

[7] Faludi, A. (2000): “The performance of spatial planning” Planning Practice & Research, Vol. 15, No. 4, pp: 299-318.

[8] Faludi, A. (1973): “Planning Theory”. Oxford: Pergamon Press

[9] Flyvbjerg, B. and Richardson, T. (2002): “Planning and Foucault: In search of the dark side of planning theory”. In P. Allmendinger and M. Tewdwr-Jones, (eds.) Planning futures: New directions in planning theory. London and New York: Routledge, pp: 44-62.

[10] Flyvbjerg, B. (2001): “Beyond the limits of planning theory: Response to my critics”. International Planning Studies, Vol. 6, No. 3, pp: 285-292.

[11] Flyvbjerg, B. (2001): “A materialistic concept of planning and participation”. Acta Sociologica, Vol. 24, No. 4, pp: 293-311.

[12] Hall, P. (1990): “Great planning disasters”. University of California Press.

[13] Hoffman, A. (): “Why they built the Pruitt-Igoe Project?”. Joint Center for Housing Studies, Harvard University.

[14] Innes, J. and Booher, D. (1999): “Consensus building and complex adaptive systems: A framework for evaluating collaborative planning”. Journal of the American Planning Association, Vol. 65, No. 4, pp: 412-423.

[15] Innes, J. (1998): “Information in communicative planning”. Journal of the American Planning Association, Winter, 52-63.

[16] Jenks, C. (1991): “The language of Post-modern Architecture”. London: Academy Editions.

[17] Kunstler, J.H. (1996): “Home from Nowhere”. New York: Simon and Shuster.

[18] Ledraa, T (2004): "Teaching Urban Planning in the New Century" in Journal of The Saudi Umran Society, No 3

[19]

[20] Ledraa, T (2007): “The Evolution of Urban Modeling and its Relationship to GIS Applications” Annals of Geography, Kuwait University, No 313.

[21] Ledraa, T (2009): “Evolution of Planning Theory and its Future Directions: Hegemony of the Western View and Neglect of Oriental Societies’ Experiences” In Journal of College of Environmental Design, King Abdulaziz University, Vol 15, No 1.

[22] Sandercock, L. (2003): “Planning in the ethno-culturally diverse city”. Planning Theory & Practice, Vol. 4, No. 3, pp: 319-323.

[23] Sandercock, L. (2000): “When strangers become neighbours: managing cities of difference”. Planning Theory & Practice, Vol. 1, No. 1, pp: 13-30.

[24] Sandercock, L. (1997): “Towards Cosmopolis, planning for multicultural cities”. Chichester, John Wiley & Sons.

[25] Taylor, N. (1999): “Anglo-American town planning since 1945: three significant developments but no paradigm shifts”. Planning Perspectives, Vol. 14, pp: 327-345.